

ختم الولاية عند الصوفية

الكاتب

رضا جمال



ختم الولاية عند الصوفية

خاص إحسان رضا جمال

الحمد لله ناصر الدين الحق ومعز أهل الملة الحنيفية، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله وسيد البرية، وعلى أصحابه والتابعين لهم بإحسان والمستمسكين بالكتاب والسنة المحمدية، أما بعد:

فإن نظرية "ختم الولاية عند الصوفية" من المواضيع التي دار حولها نقاش وردود كثيرة بين الصوفية القائلين بها والمؤيدين لها، وبين النافين والمنكرين لها من علماء أهل السنة والجماعة، وفيما يلي إيضاح وبيان لمعنى نظرية (ختم الولاية عند الصوفية)، مع تتبع تاريخي مختصر لها، وذكر من قال بها، وإظهار مآلات هذا القول ولوازمه، وكم من الصوفية ادعى الختمية، مع التعريج على الطريقة الختمية، ونسأل الله تعالى السداد في القول وحسن البيان.

فأما معنى "ختم الولاية" في اللغة: فالختم يعني: الطبع والإتمام وبلوغ آخر الشيء.

وأما الولاية فتعني: النصرة والمحبة والقربة، وهي عند أرباب السلوك مرتبة علية لخواص المؤمنين المقربين تحصل بالمواظبة على الطاعات واجتناب السيئات[1].

وأما معنى (ختم الولاية عند اصطلاح الصوفية)، فيراد به: أنه كما أن للأنبياء خاتمًا هو أفضلهم، فإن للأولياء خاتمًا هو أفضلهم، ودرجته أكبر من درجة السابقين، ويدعون له صفات وكرامات كثيرة جدًّا، يغالون فيها أشد الغلو وأقبحه.

---

(1) انظر: الكليات، (1/ 431)، وتاج العروس، (42/32)، (243/40)، ومختار الصحاح، (345/1)، وجامع العلوم في اصطلاحات الفنون، (3/ 321).

يقول الحكيم الترمذي عن صفة هذا الولي: "ذلك من الأنبياء قريب، يكاد يلحقهم"! ويبالغ الترمذي في وصف هذا الولي المزعوم الذي يدعي أنه خاتم الأولياء؛ فيقول عنه: "فهذا سيد الأولياء، وأمان أهل الأرض ومنظر أهل السماء، وخالصة الله وموضع نظره، وسوطه في خلقه".

ويقول عن مقامه: "في أعلى منازل الأولياء، في ملك الفردانية، وقد انفرد في وحدانيته، ومناجاته كفاحًا في مجالس الملك، وهداياه من خزائن السعي (خزائن المنن للأولياء، وخزائن السعي لهذا الإمام القائد، وخزائن القرب للأنبياء عليهم السلام)، فهذا خاتم الأولياء، مقامه من خزائن المنن، ومتناوله من خزائن القرب، فهو في السعي أبدًا، فمرتبته ها هنا، ومتناوله من خزائن الأنبياء عليهم السلام قد انكشف له الغطاء عن مقام الأولياء ومراتبهم وعطاياهم وتحفهم"[1]!

بل لقد وصل الضلال والشطط بهم أن فضلوا خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء، فخاتم الأولياء عند ابن عربي أفضل من خاتم الأنبياء في العلم بالله، وهو يقول: إن جميع الأنبياء والرسل يستفيدون من مشكاة هذا الخاتم المدعى بمعرفة الله التي حقيقتها وحدة الوجود، فيجعله ابن عربي مصدر علوم الأولياء والأنبياء؛ فكما أن خاتم الأنبياء عند ابن عربي هو مصدر كل علم ومشكاته، فكذلك خاتم الأولياء هو المشكاة التي يأخذ منها كل ولي علمه الباطن!

---

(1) انظر: ختم الأولياء، (161-163)، (167-168)، (406)، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، (249/1)، (252/1).

يقول ابن عربي: "وليس هذا العلم (أي العلم بوحدة الوجود) إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم"[1].

ولاشك أن هذا القول وهذه النظرية من أخطر البدع والمحدثات، بل من طوام الضلالات.

ولقد انبرى لهم علماء أهل السنة والجماعة، وردوا على هذا الضلالات، وفندوا هذه الشبهات[2]، وخصوصًا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى الذي أكثر الرد عليهم في مواضع كثيرة من كتبه وفتاويه، ولقد خص كتابًا منفردًا في الرد عليهم سماه "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"، ومن هذه المواضع قوله في الرد على من يجعلون ولاية خاتم الأولياء أعظم من ولاية الرسول، وأن ولايته تابعة لولاية خاتم الأولياء الذي ادعوه؛ يقول: و"دعوى المدعي وجود خاتم الأولياء على ما ادعوه باطل لا أصل له، ولم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلا أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم في كتاب (ختم الولاية)، وقد ذكر في هذا الكتاب ما هو خطأ وغلط مخالف للكتاب والسنة والإجماع، وهو رحمه الله تعالى وإن كان فيه فضل ومعرفة، وله من الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة أشياء محمودة، ففي كلامه من الخطأ ما يجب رده، **ومن أشنعها ما ذكره في كتاب (ختم الولاية)**

(1) فصوص الحكم، ابن عربي، ص(62)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، (23/5)، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق، (249).

(2) انظر: دراسة الدكتور إبراهيم عبد المطلب عثمان محمد السوداني حول هذا الطريقة، وعنوانها: الطريقة الختمية دراسة وتحليل في ضوء الكتاب والسنة، وكتاب: هذه هي الصوفية، الشيخ عبد الرحمن الوكيل، ومن قضايا التصوف بين الكتاب والسنة، الدكتور محمد السيد الجليند، وابن تيمية والتصوف، د.مصطفى حلمي، وفضائح الصوفية، الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، وغير ذلك كثير.

مثل دعواه فيه أنه يكون في المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر وعمر وغيرهما"[1].

ويقول رحمه الله تعالى: "تكلم طائفة من الصوفية في "خاتم الأولياء" وعظموا أمره كالحكيم الترمذي وهو من غلطاته ... وادعى جماعة كل واحد أنه هو كابن عربي وربما قيده بأنه ختم الولاية المحمدية أو الكاملة، أو نحو ذلك؛ لئلا يلزمه ألا يخلق بعده لله ولي، وربما غلوا فيه كما فعل ابن عربي في (فصوصه) فجعلوه ممدًّا في الباطن لخاتم الأنبياء، تبعًا لغلوهم الباطل، حيث قد يجعلون الولاية فوق النبوة موافقة لغلاة المتفلسفة الذين قد يجعلون الفيلسوف الكامل فوق النبي، وكذلك جهال القدرية والأحمدية واليونسية قد يفضلون شيخهم على النبي أو غيره من الأنبياء، وربما ادعوا في شيخهم نوعًا من الإلهية، وكذلك طائفة من السعدية: يفضلون الولي على النبي"[2]، وهناك مواضع كثيرة جدًّا يضيق المقام عن حصرها[3].

تتبع تاريخي لهذه النظرية:

وإذا حاولنا البحث عن بداية إحداث هذه النظرية الباطلة وعن أول القائلين بها، والتتبع التاريخي لها، نجد أن أول من أظهر هذه الفكرة ودعا إليها رجل يسمى محمد بن علي بن الحسن الترمذي – ويسمونه الحكيم – وجد في أواخر القرن الثالث الهجري، وهو مجهول سنة الولادة والوفاة، ولقد ألف كتابًا في هذا أسماه

---

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (2/221-222).

(2) المصدر السابق، (11/363-364).

(3) انظر على سبيل المثال: الرد على المنطقيين، ابن تيمية، (1/302)، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، ابن تيمية، (1/483 وما بعدها)، جامع المسائل، ابن تيمية، (4/64)، منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، (7/291).

(ختم الأولياء)[1]، وبعد أن صاغ الحكيم الترمذي نظريته وصلت الفكرة إلى ابن عربي فتلقفها منه، وجعل منها مذهبًا خاصًّا في التصوف، صاغه في ثوب رمزي من المصطلحات التي ينفرد بها في "الفتوحات" (أفرد المجلد الثاني حول الولاية، وفيه نجد تأويله لمقام الختم ووصفه)، و"الفصوص"، ثم انتشرت في مقالات القوم انتشار النار في الهشيم؛ يقول شيخ الإسلام: "ولم يذكر هذا (القول بختم الولاية) أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلا أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم في كتابه (ختم الولاية)..."، وقد سبق هذا النقل بتمامه عن شيخ الإسلام.

ولا يزال أثر هذا القول الباطل من الغلو في رسول صلى الله عليه وسلم والأولياء الصالحين، أو المزعومين، لا يزال باقيًا إلى يوم الناس هذا، بل نشأت طائفة لقبت بهذا الاسم (الطائفة الختمية)، ولهم موقع على الشبكة العنكبوتية باسم (الموقع الرسمي للطريقة الميرغنية الختمية)، سنشير إليها في هذا المقال، إن شاء الله تعالى.

مآلات هذا القول ولوازمه:

ولهذا القول المحدث وهذه البدعة الشنيعة مآلات ولوازم خطيرة، تصل إلى الكفر الصراح.

ومن أخطر وأشنع هذه المآلات: الانتقاص من المقام الرفيع لأنبياء الله تعالى ورسله، وتفضيل خاتم الأولياء المزعوم على الأنبياء والرسل أفضل منهم؛ والله تبارك وتعالى قد اصطفى الرسل وجعلهم خير خلقه، كما قال جل شأنه: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [الحج:75].

وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته؛ فلما لم يستطع هؤلاء ادعاء النبوة، ادعوا ختم الولاية وفضلوها على النبوة؛ فابن عربي وأمثاله يفضلون خاتم

(1) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق، (249/1).

الأولياء على خاتم النبيين بأمرين: أولهما: أخذه من الله مباشرة، أما خاتم النبيين فيأخذ عن الله بواسطة الملك الأمر الآخر هو أنه على يديه تم الدين هذا على حين يدعي بعضهم أن الخاتم للأولياء أفضل من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستمدون علمهم من جهته وأن الرسل والأولياء – عند ابن عربي – لا يرون علم وحدة الوجود إلا من مشكاة خاتم الأولياء.

وواضح من فكرة ابن عربي من تفضيله الولي على النبي أن هناك التقاء بينها وبين النظرية الإسماعيلية الباطنية القائلة: إن "القائم خير من النبي"، ألا ساء ما يحكمون!

بل الأشنع من ذلك أن هؤلاء الذين يقولون بختم الولاية يدعون من الأمور ما لا يصلح إلا لله وحده كما قد يدعي المدعي منهم لنفسه أو لشيخه ما ادعته النصارى في المسيح[1]!

ومن هذه المآلات واللوازم أيضًا: انتقاص سادات هذه الأمة وأولياء الرحمن، كأبي بكر وعمر وسائر الصالحين بعدهما؛ كما رأينا أن الحكيم الترمذي يفضل هذا الخاتم على أبي بكر وعمر ويجيب عن الأسئلة التي تشكل على هذا وسبب تفضيله لهذا الخاتم على هؤلاء الأجلاء والأعلام النبلاء!

ومنها أيضًا: أنه بناء على هذا القول يغلق باب الولاية ويختم، فلا أولياء لله في الأرض بعد الخاتم! ومن هو هذا الخاتم؟! فرأينا أن كثيرًا قد ادعوا ذلك زورًا وبهتانًا، والحق – كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه – أن لفظ خاتم الأولياء لا يوجد في كلام أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا له ذكر في كتاب الله ولا سنة رسوله.

---

(1) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (228/2).

وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقي؛ فإن الله تعالى يقول: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون} [يونس: 62- 63]، فكل من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا، وهم على درجتين السابقون المقربون، وأصحاب اليمين المقتصدون، كما قسمهم الله تعالى في سورة فاطر وسورة الواقعة والإنسان والمطففين.

وفي الحديث القدسي المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**يقول الله تعالى: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**...) الحديث[(1)].

فباب الولاية مفتوح إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لكل من أتى بشرائطها على مراد الله تعالى وعلى مراد رسول صلى الله عليه وسلم.

ومنها أيضًا: أن هذا القول يفتح الباب على مصراعيه لكل مخرف ومشعوز ولكل منحرف في اعتقاده وعبادته وسلوكه، يفتح له الباب ليدعي أنه هو الخاتم، وأن الأولياء ختموا به، وقد يفتح الباب للمنازعة أيضًا على هذا المنصب؛ فمن يا ترى هو خاتم الأولياء حقًّا؟!

إلى آخر هذه المآلات واللوزام التي هي من جراء هذا القول الباطل الذي يحوي بين جوانبه الأباطيل.

مدعو الختمية من الصوفية:

---

(1) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (6502).

منذ أن صنف الحكيم الترمذي كتابه المشئوم الذي وسمه بـ"ختم الولاية" وذكر فيه صفاته وبما نال هذه الولاية... إلخ . منذ ذلك كثر مدعو الولاية من الصوفية لأنفسهم أو لشيخهم أو أمير طائفتهم، وقد زعم كثير من الصوفية لنفسه أنه هو خاتم الأولياء؛ فقد ادعاها الحكيم الترمذي لنفسه، وادعاها ابن عربي لنفسه، وممن ادعاها لنفسه أيضًا محمد عثمان الميرغني السوداني المتوفى سنة 1268هـ، وكذلك ادعاها لنفسه بصفاقة ليس بعدها صفاقة أحمد التجاني الفاسي المتوفي سنة 1230هـ، ولهم في ذلك أقاويل وعبارات تطفح بالضلال والادعاءات الكاذبة[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة له، وصار يدعيها لنفسه أو لشيخه طوائف، وقد ادعاها غير واحد، ولم يدعها إلا من في كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى!

كما ادعاها صاحب الفصوص "ابن عربي" وتابعه صاحب الكلام في الحروف، وشيخ من أتباعهم كان بدمشق، وآخر كان يزعم أنه المهدي الذي يزوج بنته بعيسى ابن مريم، وأنه خاتم الأولياء، ويدعي هؤلاء وأمثالهم من الأمور ما لا يصلح إلا لله وحده، كما قد يدعي المدعي منهم لنفسه أو لشيخه ما ادعته النصارى في المسيح..."[2].

الطريقة الختمية:

وقد نشأت من بين الطرق الصوفية البدعية طريقة لقبت بهذا اللقب؛ إشارة إلى اعتقادهم وتأسيس مذهبهم على هذه النظرية الباطلة التي تقول بختم الولاية، "وهي طريقة صوفية تلتقي مع الطرق الصوفية الأخرى في كثير من المعتقدات، مثل الغلو

(1) انظر: تفاصيل ذلك ونقل أقوالهم: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق، (253-267).

(2) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (228/2).

في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وادعاء لقياه، وأخذ تعاليمهم وأورادهم وأذكارهم التي تميزوا بها، عنه مباشرة، هذا إلى جانب ارتباط الطريقة بالفكر والمعتقد الشيعي وأخذهم من أدب الشيعة وجدالهم.

وقد أسس هذه الطريقة محمد عثمان الميرغني السوداني المتوفى سنة 1268هـ، ويلقب بالختم؛ إشارة إلى أنه خاتم الأولياء، ومنه اشتق اسم الطريقة الختمية، كما تسمى الطريقة الميرغنية ربطًا لها بطريقة جد المؤسس عبد الله الميرغني المحجوب؛ وقد بدأت هذه الطريقة من مكة والطائف، وأرست لها قواعد في جنوب وغرب الجزيرة العربية، كما عبرت إلى السودان ومصر، وتتركز قوة الطريقة من حيث الاتباع والنفوذ الآن في السودان.

وعلى هذا فإن الطريقة الختمية طائفة صوفية تتمسك بمعتقدات الصوفية وأفكارهم وفلسفاتهم، حيث تبنوا فكرة (وحدة الوجود) التي نادى بها ابن عربي، وقالوا بفكرة (النور المحمدي)، واستخدموا مصطلحات الوحدة والتجلي والانبجاس والظهور والفيض وغيرها من المصطلحات الفلسفية الصوفية، وأسبغوا على الرسول من الأوصاف ما لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى، ويدعي مؤسس الطريقة بأنه خاتم الأولياء وأن مكانته تأتي بعد الرسول.

والطريقة الختمية تهتم بإقامة الاحتفالات الخاصة بإحياء ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم وإقامة ليالي الذكر أو الحولية"[1].

هذا، وقد أسسوا لهم موقعًا على الشبكة العنكبوتية باسم (الموقع الرسمي للطريقة الميرغنية الختمية) ينشرون فيه أقوالهم وأباطيلهم، وقد قام الأستاذ الدكتور إبراهيم

---

(1) مقال: الصوفية الوجه الآخر.. الصوفية المتفلسفة الإيتيمولوجي؛ إعداد/زهدي جمال الدين، وانظر أيضًا: الفكر الصوفي، (260 وما بعدها).

عبد المطلب عثمان محمد السوداني بدراسة حول هذا الطريقة بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عنوانها "الطريقة الختمية دراسة وتحليل في ضوء الكتاب والسنة"، تحدث فيها عن أسباب الاختلاف، ونشأة التصوف وتطوره، ثم الكلام عن مؤسس الطريقة الختمية وطريقته، ومؤسس الطريقة الختمية، والطريقة الختمية، وتحدث عن عقائد الطريقة الختمية، وعن عقيدتهم في الله تعالى، وعقيدتهم في النبي صلى الله عليه وسلم والأولياء وشيوخهم.

ثم ذكر بدعهم في الأوراد والأذكار، والأوراد الراتبة في الطريقة الختمية، وبقية الصلوات والأدعية والأحزاب وكيفية دخول الخلوة.

ثم أوضح في الخاتمة أن مؤسس الطريقة الختمية ينتسب لآل البيت ـ بزعمه ـ وأسرته أسرة صوفية من بلاد فارس ثم استقر في الحجاز، وولد المؤسس في الطائف وأنه نشأ على التصوف، وأنشأ طريقته من خمس طرق صوفية (الجنيدية، القادرية، الشاذلية، النقشبندية، الميرغينية)، وقد أخلت الطريقة الختمية بتوحيد الربوبية فدعا لعقيدة وحدة الوجود والاتحاد، ونقضت توحيد الألوهية بصرفها الدعاء لغير الله وكذا الاستغاثة، وكذا خالفوا في التفسير، فأصبحوا يفسرون بالهوى، وغلوا في النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعد:

فعسى أن يكون ما ذكر عن نظرية ختم الولاية عند الصوفية في هذا التطواف السريع واللمحة الخاطفة، دحض وإماتة لهذه البدع وكل البدع التي أحدثت بغير حق وألصقت بهذه الشريعة الغراء، وأن يتبصر كل ذي عقل فيما يعتقد وأن ينظر عمن ينقل؛ فإن هذا العلم دين، فإن كان من الموافقين للوحيين وسائرًا على نهج

أئمة الإسلام منذ عهد الصحابة الكرام وأتباعهم الأبرار إلى يوم الناس هذا فبها ونعمت، وإلا فليطرح جانبًا.

فالحق ما وافق الكتاب والسنة وإن قل القائل به، والباطل ما خالفهما وإن كثر المخالف له، والعصمة والنجاة في اتباع خير الأنبياء كما قال الله تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} [النور: 54]، وكما قال صلى الله عليه وسلم: (**فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**)[1].

فهو نداء لكل ذي عقل منصف من الصوفية، ولكل تابع على غير بصيرة وهدى، قد عرفت الحق؛ فالزمه.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

وصل اللهم وسلم على عبدك ونبيك محمد.

---

(1) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب فى لزوم السنة، (4609)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (4607).